جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالديدامون – شرقية

دراسة المشكل في آية:

﴿أَوَلَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ الأعراف [٨٨]

إعداد

دكتور: عبد المحسن بن معيض الحربي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بقسم الدراسات القرآنية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة طيبة بالمدينة المنورة

البريد الإلكتروني: am٤٤٧٧@gmail.com

العدد التاسع

١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

دراسة المشكل في آية: ﴿أَوَلَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ الأعراف [٨٨]

عبد المحسن بن معيض الحربي

التفسير وعلوم القرآن قسم: الدراسات القرآنية كلية: الآداب والعلوم الإنسانية

الجامعة: طيبة المدينة المنورة الدولة: المملكة العربية السعودية

٠٥٠٥٣١٤٧٨٦

الإيميل: am٤٤٧٧@gmail.com

ملخص البحث

ويهدف هذا البحث إلي ذكر كلام أهل العلم من المفسرين المتقدمين والمتأخرين في تفسير هذه الآية، مبينا وجه الإشكال، ثم ذكرت من حمل الآية على ظاهرها ولم يرَ فيها إشكالًا أصلًا، ثم ذكرت كلام المستشكلين وأجوبتهم على الآية، ثم التأصيل العلمي لهذه المسألة، ثم حل الإشكال الوارد فيها، وختمته بذكر وجهة نظري في هذه الآية، واتبعت المنهج التحليلي والنقدي المقارن. ومن أهم نتائج البحث اهتمام علماء الإسلام بحل مشكلات القرآن، واختلاف مشارب العلماء في حل المشكل، وأهمية العناية بتدبير القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: المشكل، الإشكال، العصمة، عصمة الأنبياء.

Reviewing the issue in the verse: "Surely, we shall drive you out of our land, or you shall return to our religion." [٧:٨٨].

Abdul Mohsin bin Moaid Al Harbi
Interpretation and the sciences of the Qur'an Section: Quranic Studies Faculty of Arts and Humanities
University: Tayiba almadinat almunawara
country: Kingdom of Saudi Arabia
٠٥٠٥٣١٤٧٨٦
Email: am٤٤٧٧@gmail.com

Abstract

This research aims to mention the opinions of exegetes from the earlier and later periods in the interpretation of this verse, clarifying the confusion. I mentioned those who took the verse for its apparent meaning and did not see a problem in it at all, then I mentioned the sayings of the questioners and their answers to the verse, then the scientific rooting of this issue. Then solutions to the issue and then I concluded it by stating my point of view in this verse. I followed the analytical, comparative and critical approach. One of the most important results of the research is the demonstration of the interest the Islamic scholars show in solving the issues regarding the Qur'an, the different approaches of scholars in solving the issues, and the importance of taking care of the contemplation of the Holy Qur'an.

Keywords: the problem, the Confusion and suspicion, the infallibility, the infallibility of the prophets

□بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله، وكفىٰ بالله شهيدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقرارا به وتوحيدا، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آلة وصحبه وسلم تسليما مزيدا.

أما بعد:

فقد تعرَّض علماؤنا الأكابر لدراسة مشكل القرآن، وكانت لهم جولاتٍ موفقة في الذود عن كتاب الله، وحراسة دينه، وبيان معاني ما أنزل الله.

وتركوا لنا من آثارهم ما نستضيء به ونستهدي، وما يساعدنا علىٰ فهم كتاب الله فهمًا سديدًا وصوابًا علىٰ الوجه الصحيح.

ومن الآيات التي وقف عندها علماؤنا قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ [الأعراف ٨٨.[

وقد وقف المفسرون إزاء تلك الآية فأطالوا الوقوف ما بين آخذ بظاهرها، وملتمس لتأويلها بقرينة معلومة.

وبتوفيق الله سبحانه وعونه وقفت في هذا البحث محاولًا حل المشكل، مستعينًا بالله في بيان وجه الحق في تلك الآية.

وجعلت بحثي في ستة مطالب:

المطلب الأول: بيان وجه الإشكال في الآية.

المطلب الثاني: المفسرون الذين أخذوا بظاهر الآية.

المطلب الثالث: المفسرون الذين التمسوا التأويل للآية.

المطلب الرابع: سبب الإشكال في الآية.

المطلب الخامس: التأصيل العلمي للمسألة.

المطلب السادس: حل الإشكال، وبيان القول الراجح في نظري.

ثم الخاتمة وفيها أبرز النتائج والتوصيات.

ثم ثبت بأهم لمراجع والمصادر.

فأقول مستعينًا بالله تعالى:

المطلب الأول:

بيان وجه الإشكال في الآية

المتأمل في الآية يفهم من قول قوم شعيب لنبيهم شعيب عليه السلام: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أنه كان قبل النبوة مشركًا، وأنه كان على ملتهم، وأنهم يهددونه بالإخراج والطرد من أرضهم إن لم يرجع لملتهم ويعود لما كان عليه؛ لأن العود للشيء والرجوع إليه يعني أنه كان عابدًا للأوثان كما كان عليه قومه من قبل ومن بعد.

المطلب الثاني:

المفسرون الذين أخذوا بظاهر الآية

أخذ بظاهر الآية جمع من المفسرين، وفيما يأتي ذكر أبرزهم:

١- ابن جرير الطبري:

قال رحمه الله: "يقول تعالى ذكره: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ يعني بالملأ: الجماعة من الرجال، ويعني بالذين استكبروا: الذين تكبروا عن الإيمان بالله، والانتهاء إلى أمره، واتباع رسوله شعيب عليه السلام، لما حذرهم شعيبٌ بأسَ الله، على خلافهم أمرَ ربهم، وكفرهم به.

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ ومن تبعك وصدَّقك وآمن بك، وبما جئت به معك.

﴿مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ يقول: لترجعن أنت وهم في ديننا وما نحن عليه.

قال شعيب مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾.

قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: قال شعيب لقومه إذ دعوه إلى العود إلى ملتهم، والدخول فيها، وتوعَّدوه بطرده ومَنْ تبعه من قريتهم إن لم يفعل ذلك هو وهم: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يقول: قد اختلقنا على الله كذبًا، وتخرَّصنا(١) عليه من القول باطلًا إن نحن عدنا في ملتكم، فرجعنا فيها بعد إذ أنقذنا الله منها، بأن بصَّرنا خطأها وصوابَ الهدى الذي نحن عليه، وما يكون لنا أن نرجع فيها فندين بها، ونترك الحق الذي نحن عليه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ إلا أن يكون سبق لنا في علم الله أنَّا نعود فيها، فيمضي فينا حينئذ قضاء الله، فينفذ مشيئته علينا.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ يقول: فإنَّ عِلْمَ ربنا وسع كل شيء فأحاط به.

ومعنى الكلام: أن شعيبًا قال لقومه: أتخرجوننا من قريتكم، وتصدّوننا عن سبيل الله، ولو كنا كارهين لذلك؟ ثم أدخلت "ألف" الاستفهام على "واو" "ولو". فلا يخفى عليه شيء كان، ولا

---

(١) تَخَرَّصَ عَلَيْه فُلانٌ، إِذَا افْتَرَى وتَكَذَّبَ بالبَاطِلِ، تاج العروس، مادة خ ر ص (١٧/ ٥٤٨).

شيء هو كائن. فإن يكن سبق لنا في علمه أنّا نعود في ملتكم، ولا يخفى عليه شيء كان ولا شيء هو كائن، فلا بد من أن يكون ما قد سبق في علمه، وإلا فإنا غير عائدين في ملّتكم" .(١)

٢- شيخ الإسلام بن تيمية:

قال رحمه الله: "قوله سبحانه: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ظاهره دليل على أنَّ شعيبًا والذين آمنوا معه كانوا على ملة قومهم؛ لقولهم: ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾، ولقول شعيب: أنعود فيها أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ، ولقوله: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم ﴾ فدل على أنهم كانوا فيها، ولقوله: ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ فدل على أن الله أنجاهم منها بعد التلوث بها؛ ولقوله: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾، ولا يجوز أن يكون الضمير عائدًا على قومه؛ لأنه صرح فيه بقوله: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ ﴾؛ ولأنه هو المحاور له بقوله: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا ﴾ إلى آخرها، وهذا يجب أن يدخل فيه المتكلم، ومثل هذا في سورة إبراهيم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم ١٣]".

وقال رحمه الله: "هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ فيها، ومنها قوله: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ﴾ وما في معناها. والتحقيق: أن الله سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب، كما في حديث هرقل(٢)، ومن نشأ

---

[١٥] جامع البيان في تأويل آي القرآن (١٢/ ٥٦٢-٥٦١).

[٢٥] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)، (١٥/ ١٧).

بين قوم مشركين جهال، لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم، إذا كان معروفًا بالصدق والأمانة، وفَعَلَ ما يعرفون وجوبه، وَتَرَكَ ما يعرفون قبحه

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، فلم يكن هؤلاء مُسْتَوْجبين العذاب، وليس في هذا ما يُنَفِّر عن القبول منهم؛ ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قادحًا، وقد اتفقوا على جواز بعثة رسول لا يَعْرِفُ ما جاءت به الرسل قبله من النبوة والشرائع، وأن من لم يقر بذلك بعد الرسالة فهو كافر، والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضلًا عن أن تُقِرَّ به، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل ٢]، وقال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، فجعل إنذارهم بالتوحيد كالإنذار بيوم التلاق، وكلاهما عرفوه بالوحي، وما ذكر أنه صلى الله عليه وسلم بُعِّضَت إليه الأوثان، لا يجب أن يكون لكل نبي، فإنه سيد ولد آدم، والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره، من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى، وبالنصر والقهر، كما كان نوح وإبراهيم.

ولهذا يضيف الله الأمر إليهما في مثل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الحديد ٢٦] ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران ٣٣]، وذلك أن نوحًا أول رسول بعث إلى المشركين، وكان مبدأ شركهم من تعظيم الموتى الصالحين، وقوم إبراهيم مبدأه من عبادة الكواكب، ذاك الشرك الأرضي، وهذا السماوي؛ ولهذا سدَّ صلى الله عليه وسلم ذريعة هذا وهذا.(١)"

٣- الشيخ السعدي:

قال رحمه الله: "﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وهم الأشراف والكبراء منهم الذين اتبعوا أهواءهم ولهوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه واستكبروا عنه، فقالوا لنبيهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥-٢٩-٣٠).

﴿ قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ استعملوا قوتهم السَّبُعِيَّة، في مقابلة الحق، ولم يراعوا دينا ولا ذمة ولا حقا، وإنما راعوا واتبعوا أهواءهم وعقولهم السفيهة التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا.

فشعيب عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعا في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعدوه إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم، قال لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجبًا من قولهم: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ أي: أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها ؟

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ أي: اشهدوا علينا أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل لله شريكا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولدًا ولا صاحبة، ولا شريكًا في الملك.

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال، فآيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها مبغضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذبًا، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون، ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودهم فيها بعد ما هداهم الله من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأمحل المحال، وحيث إن الله منَّ عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال، وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم

سيفعلون شيئًا أو يتركونه، ولهذا استثنى: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾، فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه" .[1]

٤- الشيخ محمد رشيد رضا:

قال رحمه الله عند تفسير هذه الآية: "﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم ﴾ هذا كلام مستأنف لبيان أهم الأمرين وأولاهما بالرفض والكراهة، وهو إنشاء في لفظ الخبر، فإما أن يكون تأكيدًا قَسَمِيًّا لرفض دعوة الملأ إياهم إلى العود في ملتهم، كما يقول القائل: برئت من الذمة، أو من ديني، أو من رحمة الله تعالى إن فعلت كذا، فيكون مقابلة لقسمهم بقَسَم أعرق منه في التوكيد، وإما أن يكون تعجبًا خرج لا على مقتضى الظاهر، وأكد بقد والفعل الماضي، والمعنى: ما أعظم افتراءنا على الله تعالى إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها، وهدانا الصراط المستقيم بالحنيفية ملة إبراهيم، وإذا كان من يتبع ملتكم يعد مفتريا على الله تعالى بقوله عليه ما لا يعلم، لا بهداية من الوحي ولا برهان من العقل فكيف يكون حال من افترى عليه وضل عن صراطه على علم؟ وإنَّ كفر الجحود -وهو إنكار الحق وغمطه بعد العلم به- هو شر أنواع الكفر، والافتراء على الله تعالى فيه أفظع ضروب الافتراء التي لا يقبل فيها أدنى عذر.

وأنت ترى أن النتيجة أدل من العود على إثبات أنهم كانوا على ملة قومهم حقيقة، وقد علمت أن المفسرين يجعلونه تغليبًا لاستثنائه عليه السلام، ونقول بناءً على ما قررناه من أن عدهم إياه من أهل ملتهم لا يقتضي أنه كان يعبد ما يعبدون، ويفعل من التطفيف وبخس الناس أشياءهم ما كانوا يفعلون، إنه يصح أن يشمله إنجاء الله تعالى إياه منها، بمعنى إنجائه من الانتماء إلى ملة ما كان يؤمن بعقيدتها، ولا يعمل عمل أهلها، ولا كان يهتدي بعقله ورأيه إلى ملة خير منها، فكان موقفه موقف الحيرة في شأنها، كما يؤخذ من قوله تعالى في خطاب النبي الخاتم الأعظم صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ كما [الضحى ٧]، وتفسيره بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ

---

[1] تيسير الكريم الرحمن (ص ٢٩٦).

نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى ٥٢].(١)"

٥- الشيخ أبوبكر الجزائري:

قال رحمه الله في تفسيره: "ما زال السياق الكريم في قصص شعيب مع قومه أهل مدين فبعد أن أمرهم ونهاهم وذكرهم ووعظهم ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ مهددين موعدين مقسمين: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ هكذا سنة الطغاة الظلمة إذا غُلِبوا بالحجج والبراهين يفزعون إلى القوة فلما أفحمهم شعيب خطيب الأنبياء عليهم السلام، وقطع الطريق عليهم شهروا السلاح في وجهه، وهو النفي والإخراج من البلاد أو العودة إلى دينهم الباطل: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾، ورد شعيب على هذا التهديد بقوله: ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾ أي أنعود في ملتكم ولو كنا كارهين لها.

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ ووجه الكذب على الله إن عادوا إلى ملة الباطل هو أن شعيبًا أخبرهم أن الله تعالى أمرهم بعبادته وحده وترك عبادة غيره، وأنه تعالى أرسله إليهم رسولًا، وأمرهم بطاعته إنقاذًا لهم من الباطل الذي هم فيه، فإذا ارتد وعاد هو ومن معه من المؤمنين إلى ملة الشرك كان موقفهم موقف من كذب على الله تعالى بأنه قال كذا وكذا، والله عز وجل لم يقل هذا.

ثم قال شعيب: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ ﴾ ليس من الممكن ولا من المتهيئ لنا العودة في ملتكم أبدًا، اللهم إلا أن يشاء ربنا شيئًا فإن مشيئته نافذة في خلقه".(٢)

---

(١) تفسير المنار (٩/ ٥-٦).

(٢) أيسر التفاسير (٢/ ٢٠٤).

المطلب الثالث

من التمس التأويل لهذه الآية

ذكر بعض المفسرين تأويلات لهاتين الآيتين خروجًا من القول بأن الأنبياء يجوز عليهم الوقوع في الشرك قبل النبوة، وهم الأغلب والأكثر من أهل التفسير واللغة؛ كالزجاج، وابن الأنباري، والثعلبي، والزمخشري، والبغوي، وابن الجوزي، والبيضاوي، وابن كثير رحمهم الله جميعًا.

وقد أوَّلوا لتعودن بمعنى: لتصيرن، ولتدخلن، وجعلوه بمعنى الابتداء، لا بمعنى الرجوع إلى شيء قد كان.

ومنهم من رأى أن الخطاب كان بضمير الجمع فالعود للملة التي كانوا عليها يتجه للأتباع وليس للنبي **كقول الشاعر**:

فإنْ تكُنِ الأيامُ أَحْسَنَّ مَرَّةً إليَّ فقد عادت لهنَّ ذُنُوبُ

وقول آخر:

وما المرءُ إلا كالشهابِ وضوئِهِ يحورُ رمادًا بعدَ ما كانَ ساطعا

وقول أمية:

تلكَ المكارمُ لا قَعْبَانِ من لبنٍ شِيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

وأمثال ذلك مما يدل على الابتداء.

وبعضهم أبقاه على معناه، وقال: هو للتغليب؛ لأن قومهم كانوا في ملة الكفر، فغلب الجمع على الواحد.

قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف خاطبوا شعيبًا عليه السلام بالعود في الكفر في قولهم: ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾، وكيف أجابهم بقوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا اللَّهُ مِنْهَا﴾، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا ﴾ والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلَّا ما ليس فيه تنفير، فضلًا عن الكبائر، فضلًا عن الكفر؟

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾ فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم، قالوا: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ فغلَّبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين جميعًا، إجراءً للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه، فقال: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ وهو يريد عود قومه، إلَّا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئًا من ذلك إجراءً لكلامه على حكم التغليب.

وقال صاحب الانتصاف: هذا الرأي بعيد عن التكلف ومتسق مع رد شعيب".[1]

وقد تبع البيضاويُّ الزمخشريَّ، فقال: "﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ ، أي: ليكونن أحد الأمرين إمَّا إخراجكم من القرية، أو عودكم في الكفر، وشعيب صلى الله عليه وسلم لم يكن في ملتهم قط؛ لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقًا لكن غلَّبوا الجماعة على الواحد فخوطب هو وقومه بخطابهم، وعلى ذلك أجرى الجواب في قوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ أي كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، أو أتعيدوننا في حال كراهتنا".[2]

وذهب ابن كثير إلى هذا المعنى، فقال: "هذا إخبار من الله تعالى عمَّا واجهت به الكفار نبي الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين، في توعدهم إياه ومن معه بالنفي من القرية، أو الإكراه على الرجوع في مِلَّتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة.

وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ يقول: أَوَ أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه؟ فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه، فقد أعظمنا الفِرْية على الله في جعل الشركاء معه أندادًا. وهذا تعبير منه عن أتباعه".[3]

وهناك تخريجات أخرى ذكرها بعض المعاصرين تتسق مع هذا القول، منها:

---

[1] الكشاف (٢/ ١٢٣-١٢٤).

[2] أنوار التنزيل (٣/ ٤٠).

[3] تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٤٨).

١-أن هذا القول جارٍ على ظنهم أنه كان في ملتهم؛ لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم.

٢-أنه صدر عن رؤسائهم تلبيسًا على الناس وإيهامًا لهم بأنه كان على دينهم، وما صدر عن شعيب عليه السلام كان على طريق المشاكلة.[١]

٣-أن قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ بمعنى: أو لتصيرن، إذ كثيراً ما يرد "عاد" بمعنى "صار" فيعمل عمل كان. ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك، وهو الانتقال من حال سابقة إلى حال مؤتنفة، وكأنهم قالوا: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفاراً مثلنا".[٢]

قال الرازي: "تقول العرب: قد عاد إلى فلان مكره، يريدون: قد صار منه المكر ابتداء".[٣]

وقد جمع هذه الوجوه وغيرَها جمال الدين القاسمي رحمه الله في تفسيره، فقال: "اعلم أن ظاهر قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ يدل على أن شعيبًا عليه السلام كان على ملتهم قبل بعثته، ومعلوم عصمة الأنبياء عن الكبائر، فضلًا عن الشرك.

وللعلماء في هذه الآية وجوه:

منها: أن العود المقابل للخروج، هو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها.

والجار والمجرور حال، أي: ليكن منكم الخروج من قريتنا، أو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها، داخلين في ملتنا.

---

[١] المشاكلة: ذكْرُ الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته. انظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (١/ ١٤٤) لعبد المتعال الصعيدي.

[٢] التفسير الوسيط د محمد سيد طنطاوي (٥/ ٣٢٥).

[٣] مفاتيح الغيب (١٤/ ١٤٤).

ومنها: أن العود المذكور إلى ما خرج منه، وهو القرية. والمجرور حال كالسابق، أي: ليكن منكم الخروج من قريتنا أو العود إليها، كائنين في ملتنا. وعُدِّي عاد بـ (في) كأن الملة لهم منزلة الوعاء المحيط بهم.

ومنها: أن هذا القول جار على ظنهم أنه كان في ملتهم؛ لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم.

ومنها: أنه صدر عن رؤسائهم تلبيسًا على الناس، وإيهامًا؛ لأنه كان على دينهم، وما صدر عن شعيب عليه السلام كان على طريق المشاكلة.

ومنها : أنَّ ﴿ لَتَعُودُنَّ ﴾ بمعنى لتصيرن؛ إذ كثيرًا ما يرد عاد بمعنى صار، فيعمل عمل كان، ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك، وهو الانتقال من حال سابقة، إلى حال مؤتنفة مثل صار، وكأنهم قالوا – والله أعلم – : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا، أو لتصيرُنَّ كفارًا مثلنا.

ومنها: إبقاء صيغة العود على ظاهرها، من استدعائها رجوع العائد، إلى حال كان عليها قبل، كما يقال: عاد له، بعد ما كان أعرض عنه، إلا أن الكلام من باب التغليب" .[1]

---

[1] محاسن التأويل (٥/ ١٤٩-١٥٠).

المطلب الرابع

سبب الإشكال في الآية

السبب في تقديري الذي حدا بالجمع الأكبر من المفسرين إلى القول بالتغليب في الآية، أو المشاكلة، أو أن عاد بمعنى صار هو ما يترتب على القول بظاهر النص من أن الأنبياء يقع منهم الشرك قبل النبوة؛ لهذا لجأوا إلى القول بالتخريجات آنفة الذكر.

المطلب الخامس

التأصيل العلمي للمسألة

مسألة عصمة الأنبياء من الشرك قبل النبوة من القضايا التي شاعت وذاعت، واشتهرت وانتشرت، والخلاف فيها قديم بين أهل السنة والمعتزلة، وبين أهل السنة بعضهم بعضًا، فمن قائل إنهم معصومون من الشرك قبل النبوة والرسالة، ومن قائل إنه لا يلزم عصمتهم، ولكل من القولين أدلته[1]، ليس هذا البحث محلًّا لبسطها.

[1] () للاستزادة في هذه المسألة انظر بحثًا بعنوان: (عصمة الأنبياء والرسل قبل النبوة) مجلة الدراسات العقدية، العدد (٢٠).

المطلب السادس

حل الإشكال، وبيان القول الراجح في نظري

بعد هذا التَّطواف أقول: هذه قضية اجتهادية يسع فيها الخلاف حيث لم يأت دليل نقلي قاطع فيها، فمن أخذ بظاهر النص في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ وأجرىٰ العود علىٰ ظاهره وهو بمعنىٰ رجوع العائد إلىٰ حال كان عليها قبل فهذا وقف مع النص، وأخذ بظاهر القرآن.

ومن تأول ذلك بالتأويلات السائغة مما ذكرته في هذا البحث، وغيره من التأويلات الصحيحة فله وجه قوي.

القول الراجح في نظري:

بعد معايشة لتلك الآية الكريمة أقول طالبًا السداد من الله: إن القول الذي اطمأن إليه قلبي بعد نظر وتمحيص: هو أن الخطاب في قوله: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ متجه لشعيب عليه السلام ولمن اتبعه من المؤمنين، حيث نلاحظ أنهم خاطبوا شعيبًا عليه السلام بضمير الجمع؛ لدخول أتباعه معه في الخطاب والوعيد، وأنَّ دخول شعيب فيه من باب التغليب، وفي ذلك القول حماية لجناب الأنبياء قبل النبوة وبعدها من الوقوع في الشرك؛ لأنهم صفوة الله من خلقه، وأولىٰ الناس بالكمال.

والله تعالىٰ أعلم.

هذا وأسأل الله تعالىٰ أن يهدينا للحق وأن يمن علينا بنور البصيرة وأن يجعلنا من الراسخين في العلم.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الخاتمة

وفيها أهم النتائج والتوصيات.

أوَّلًا النتائج:

١-عناية علماء الإسلام في القديم والحديث بحل مشكلات القرآن، ودفع ما يوهم التعارض عن كتاب الله جل وعلا، وهذا داخل في حفظ القرآن الذي تكفل الله جل وعلا به.

٢-اختلاف مشارب العلماء في حل المشكل، وكثير من الأجوبة المختلفة تكون صحيحة، ويمكن حمل الآية عليها.

٣-أهمية العناية بتدبر القرآن الكريم، فبتدبر القرآن والتأمل فيه وطول الوقوف مع الآيات تظهر كثير من الكنوز، وتتبدا كثير من الأوجه التي تحمل عليها الآيات وتحل بها الإشكالات.

ثانيا التوصيات:

أوصي إخواني الباحثين في الدراسات القرآنية إلى الاعتناء بمثل هذه الجوانب من كتاب الله، وتسخير الجهود في الدفاع عن القرآن والذب عنه.

ثبت المراجع والمصادر

١-أنوار التنزيل لعبدالله بن عمر البيضاوي، دار النشر: دار الفكر، بيروت.

٢-أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لأبي بكر الجزائري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣-بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة لعبد المتعال الصعيدي، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤-تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضىٰ الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

٥-التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، بدون تاريخ.

٦-تفسير القران العظيم، للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٧-تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون تاريخ.

٨-التفسير الوسيط، للدكتور محمد سيد طنطاوي، دار السعادة.

٩-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٠-جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١١-صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، طبعة المكنز الإسلامي.

١٢-فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ.

١٣-الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لجار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤-مجلة الدراسات العقدية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (٢٠)، السنة العاشرة، محرم،

١٤٣٩هـ.

١٥-مجموع الفتاوىٰ لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحراني الدمشقي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦ه - ١٩٩٥م.

١٦-محاسن التأويل، لجمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مؤسسة التاريخ الإسلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٧-مختار الصحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٨-المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف، للدكتور صالح الغامدي، دار الأندلس، حائل، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.

١٩-مفاتيح الغيب لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.